

# غرباء في الليل



يؤن فحسان

# غرباء في الليل

الكاتب: يزن نعيان

## غرباء في الليل

هل سبق لك ورأيت جسداً بلا روح...؟؟؟

هل نظرت إلى ميت يمشي...؟؟؟

هل رأيت عجوز بجسد شاب...؟؟

أهكذا هو الحب...؟؟

أم ما أصابني لم يكن حباً.... بل كان ألماً

إنها حالة شعورية لا توصف وإن وصفت لم تفهم إنه معنى الموت على قيد الحياة....

في إحدى الليالي من ليالي دمشق كانت ليلة قمرء، وكانت السماء مرصعة بالنجوم، وكانت الأضواء مختلطة ببعضها مع رائحة الياسمين لترسم مشهداً انطباعياً طاغياً في رفته...

حين رأى "حسام" فتاة جالسة على الرصيف فقال: في قرارة نفسه ما حال تلك الفتاة أي عذاب يسكنها...

فقد علم مما قد حدث معه من أحداث أليمة....

أنه لا يوجد أحد في هذه الحياة قد سلم من الجروح والآلام ...

## غرباء في الليل

مما دفعه الفضول إلى الاقتراب منها بهدوء شديد فقد شعر برقتها التي تكاد نسومات الربيع تكسرها.....

أقرب منها بهدوء وفكر ملياً بما يجب أن يقوله...

عندها جاءتة خاطرة ليس المهم ما تقوله المهم الآن هو أن تبدأ الكلام بأي كلام مهما كان بسيطاً لكن احذر أن تكسرها....

وعندها قطع صمت تلك الليلة رنين هاتفها...

وعند إجابتها على مكالمتها انهمرت بالبكاء...

دفعه بكأؤها إلى الاقتراب منها أكثر...

فسألها هل أنت على ما يرام؟؟؟؟

فازداد بكأؤها أكثر وانهمر كالمطر على وجنتيها...

فجلس إلى جانبها وأخذ يستفسر أكثر عن سبب ذلك البكاء الشديد...

فأخبرته بقصتها لم لمست من اللطف الذي في داخله...

فهو الوحيد الذي استطاع أن يشعر بحزنها قبل أن تنطق بحرف...

## غرباء في الليل

وبعد أن هدأت من بكائها الذي دام طويلاً لشدة حزنها الذي لا يعلمه إلا الله ولم يشعر به إلا "حسام" في تلك الليلة...

وبعد أن قامت بإخباره بقصتها الحزينة تلك...

نظرت إلى عيناه فرأت داخلهما حزناً عميقاً...

فسألته ما ذلك الحزن الذي تخفيه...

قال وهل ظاهراً عليّ علامات الحزن...

قالت إن المشاعر باطنها القلب وظهرها العين والروح....

فبدأ بسرد قصته وقال:

لقد خسرت من ظننتهم سنداً لي في هذه الحياة، بل من ظننتهم إخوتي الذين لم تدهم أمي، التي خسرتها هي الأخرى مع والدي في تلك الحرب الطاحنة التي عصفت بمنطقتي التي كنت أسكن بها..

فولد ذلك الكلام فضولاً بداخلها، وقالت: بعفوية مطلقة بالله عليك حدثني أكثر عن قصتك...

وأخبرني بالمزيد من التفاصيل...

## غرباء في الليل

فبدأ بالحديث عن الحزن الكامن بداخله، وقال: منذ كنت طفلاً في الحادية عشر من عمري حدثت حربٌ طاحنة على منطقتي وجراء تلك الحرب فقدت أُمِّي وأبي وإخوتي والكثير من أهل منطقتي الطيبون الذين لا ذنب لهم بتلك الحرب الجائرة سوى أنهم وجدوا في تلك المنطقة...

فهاجرت مع من بقي حيٍّ من أهل منطقتي إلى دمشق...

وفي دمشق نشأت لوحدي وأجبرت على ترك الدراسة لعدم قدرتي على دفع تكاليفها وأجبرت على العمل وأنا ما زلتُ صغيراً رغم تفوقي في الدراسة فلطالما كنت من الأوائل على مدرستي حتى الصف الخامس الابتدائي...

لكن الحياة أجبرتني أن أتخلى عن حلمي من أجل لقمة العيش ذلك الحلم الذي كنت أحلمُ به والذي كان يراه أبي بي وهو أن أصبح طبيب يدوي الناس والفقراء خاصة الذين لا يملكون ثمن العلاج لكن هذه هي الحياة...

وفي بيئة العمل التي كنت أعمل بها تعرفت على من حسبتهم أنهم أصدقاء أولئك الذين تعصف بهم الحياة عند أول اختبار لصدقاتهم...

لكنني في البداية حسبتهم أصدقاء وعندها قلتُ بأنني لم أعد وحيداً فقد بعثوا في نفسي الأمل من جديد فصاحبتهم لمدة تزيد عن عشر سنوات كانوا وطني وأهلي وعائلتي كانوا كل ما أملك...

وبعد تلك المدة الطويلة من العشرة تعرضت لوعكة صحية أجبرتني على الدخول إلى المستشفى لمدة دامت ثلاث سنوات....

كانوا في البداية يترددون علي في كل يوم أكثر من مرة لدرجة أنني قد نسيت أُمِّي ومرضي اللذين كادوا أن يفتكوا بي...

## غرباء في الليل

ولكن لم أعرف ما أصابهم..

هل فقدوا الأمل من شفائي؟؟؟

أم تراهم قد تأكّدوا من موتي قبل أن يؤكده الأطباء؟؟

أو قبل سماع صوت صفير ذلك الجهاز الذي كانوا يعلمون من خلاله أنني ما زلت على قيد الحياة....

وبعد حوالي سنة ونصف من تلك الحالة لم أعد أرى أحداً منهم لقد رحلوا جميعاً...

عندها دخلتُ بحالة نفسية صعبة جداً إضافةً إلى مرضي...

فلم أجد إلا تلك الممرضة التي لم تستسلم لموتي بعد بل ظلت واقفة بجانبني ترعاني وتهتم بي...

وعندما تماثلت للشفاء تعلق قلبي بها لشدة الحنان الذي لمستته بقلبها الذي كان كالوطن التجأ إليه كلما فقدت الأمل بالشفاء...

فأرّها واقفة بجانبني تدفع إليّ بجرعات الأمل مثل الطبيب الذي يدفع إليّ بجرعات الدواء....

## غرباء في الليل

عندها زاد إصراري وتمسكي بالحياة أكثر لأنني شعرت بشيء من الإعجاب تجاهها  
فقررت البوح لها...

وعندما أخبرتها احمر وجهها وابتسمت وقالت لقد وجدت في نفسي مثل ذلك أيضاً...

وبعد شفائي من مرضي زاد الشعور بالحب تجاهها وأصبحت متعلقاً بها أكثر وأكثر....

وبعد مدة ذهبت إلى المستشفى الذي تعمل به من أجل السؤال عنها لأنني لم أجدها في  
بيتها ولم أستطع التواصل معها أخبروني أنها قد رحلت...

سألتهم إلى أين...

أجابوني لقد سافرت إلى بلدٍ بعيد..

عندها لم يعد لدي ثقة بأي شيء من هذه المشاعر التي يطلقون عليها {الحب، الصداقة،  
الوفاء} ...

قالت له لكنني أراك تبتسم...

أجابها لا بد من وجود زهرة في البستان المليء بالشوك فتلك الزهرة هي التي تنسينا  
مرارة ذلك الشوك كله...

قالت ومن هي تلك الزهرة التي أنستك ذاك المرار...

## غرباء في الليل

قال إنه صديقي "ماجد" بل هو أخي الوحيد في هذه الحياة...

وبعد أن سمعت قصته الحزينة تلك قطعت انهماك دمعك بكلماتها الهادئة التي تدل على عطفها وحنانها الشديدين وقالت: لا تقلق ودع ما مضى من تلك الذكريات تدفعك إلى الإمام فقد تعلمت الدرس...

تعلمت ألا تثق بأحد بسرعة كبيرة، وتعلمت أيضاً ألا تعطي قلبك لأحد، وتعلمت أخيراً أن الوفاء لا يكون في الأشخاص العابرين كالذين ادعوا صداقتك....

ابتسم في وجهها تلك الابتسامة المخادعة، وقال: إن الماضي الذي تظنيه قد مضى من حياتي قد خلف وراءه جرحاً لا يشفى، وأثراً لا يمحي.....

فذلك هو الماضي من اسمه نجد أنه مستمر معنا إلى الأبد....

عندها هم كل واحدٍ منهم بالذهاب..

قالت "شهد" لقد سرقنا الحديث وأنساني أن أسألك عن اسمك....

ما هو اسمك...

أجاب وهو زاهداً وهل للأسماء من معنى....

قالت بالطبع فلكلٍ من اسمه نصيب...

## غرباء في الليل

قال: "حسام"... وانت؟

أجابت مع ابتسامة رسمت على وجهها "شهد"

وبعد أن علم كل واحد منهم اسم الآخر...

اقترحت "شهد" أن يتمشياً سوياً في طريق عودتهم لعل ذلك يخفف من حزنهما...

فوافق على اقتراحها...

وفي طريق سيرهم سأل كل واحد منه الآخر عن {أعمالهم، هواياتهم، دراستهم}

وفي طريقهم رن هاتف "حسام" فنظر إلى هاتفه واذ به "ماجد" يسأله أين أنت؟، لماذا تأخرت؟، اعتذرت منه إن كانت قد سببت له الإزعاج، فقال لا عليك والتفت وتركها خلفه، فسمع صوتها تناديه التفت إليها، فسألته أين نجتمع مرة أخرى أجابها في مكان الذي كشف عن جرحينا {الرصيف}...

وفي اليوم التالي جاءت "شهد" إلى الرصيف وانتظرت مدة من الزمن ولم يأتي...

قلقت عليه وبدأت بالاتصال به ولكنها لم تحصل على إجابة...

ومر اليوم تلو اليوم ولم تستطع الوصول إليه أصابها شيء في عقلها وقلبها لم تعرفه ما هو وكأن حرب اندلعت بين قلبها وعقلها..

## غرباء في الليل

فلم تجد إلا أعز الناس على قلبها لتخبره بالأمر، صديقتها " هبة " ...

وبالفعل أشارت صديقتها عليها وأخبرتها بما قد أصابها...

اقتنعت "شهد" بكلامها...

وإذ به هاتفها يصدر صوت فتذهب مسرعةً إليه تظهر على الشاشة رسالة من "حسام" ...

تفتح الهاتف على عَجَلٍ فتجده قد أرسل يقول أنا أنتظرِكَ في مكان أحزاننا...

تذهب "شهد" إليه مسرعة...

وعندما وصلت سألته ما الذي قد أصابك، لماذا لم ترد علي، قد حاولت الاتصال بك كثيراً لكنك لم تجب...

أجابها قد أصابتنِي وعكةٌ صحية..

سألته على الفور هل أنت بخير الآن؟؟

قال الحمد لله أنا بخير...

عندها تذكرت كلام صديقتها الذي أشارت به عليها حيث أخبرتها أنها قد وقعت في حب "حسام" بل قد عشقته...

## غرباء في الليل

لأن الشعور الوحيد الذي يجعل المرء على تلك الحالة هو "الحب"...

في هذه اللحظة نطق كل واحد منهم قائلاً أريد أن..

فسكت الإثنين وطلبت "شهد" من "حسام" أن يتكلم أولاً...

فقال في غيابي عنك شعرت بشعور لم أشعر به منذ زمن بعيد...

لا أعرف ففي غيابي عنك شعرت وكأن الدنيا أصبحت فارغة...

والآن عندما التقيتك شعرت وكأن الروح قد ردت إلي...

فعلمت أنني قد أحببتك رغم عني...

أحببتك رغم أنني قد قطعت عهداً على نفسي ألا أحب بعد ما جرى لي..

لكنك دخلت قلبي وعقلي دون إذن...

أنا أحبك... أحبك... أحبك...

تنهد بعد تلك الكلمات وقال كأنني بعثت من جديد....

## غرباء في الليل

ابتسمت له تلك الابتسامة الخجلة وقالت والله ما أسرعت إليك إلا لأقول لك مثل الذي قلته...

فقال بعد سماع كلامها هل حقاً ما تقولين...

قالت لقد أصابني مثل الذي أصابك عندما ابتعدت عني..

أجابها الآن قد زاد خوفي...

سألته ومما تخاف..

قال أخاف أن يكسر قلبي، أخاف أن نفترق...

عاهد كل واحد منهم الآخر في نفس المكان الذي التقيا فيه بالألا يفترقا ابداً...

توالت الأيام.. تبعتهما الشهور والسنين وهما في حالة حب شديدة...

عندها أخبرته "شهد" بأنه يتوجب عليها السفر هي وعائلتها إلى مكان بعيد من هذا العالم..

سألها لماذا؟؟؟...

قالت والله لا أطيق الأرض دونك ولكنني أخبرتك منذ أن التقينا للمرة الأولى بمرض أبي والبارحة قد اتصل علينا طبيبه الذي كان والذي يتلقى العلاج عنده، وأخبرنا أنه قد

## غرباء في الليل

تواصل مع أحد دكاترته في الجامعة التي درس فيها، إلى علاج لحالة والدي لكن يتوجب علينا السفر...

وهي تخبره بقرار سفرها كان دمعها ينهمر...

شجعها "حسام" على السفر لأنها يجيب ألا تبتعد عن والدها...

وقطعا وعداً لبعضهما...

سافرت "شهد" إلى أميركا من أجل علاج والدها...

غابت يوم... شهر... سنة.. سنوات...

لم يسمع أخبارها من مدة طويلة...

عندها جاء إلى الرصيف وجلس بمفرده في إحدى الليالي...

وقال أين ذلك الوعد الذي قطعناه ألم يعاهد كل واحد من الآخر بأن نبقى سوياً مهما ابتعدت المسافات، ألم نتعاهد أن نتصل ببعض كل يوم...

وها أنا لم أعد أسمع أخبارك منذ قرابة سنة...

لماذا نقضتي العهد والوعد؟؟؟

## غرباء في الليل

أهذا حبك لي؟؟؟

أم هذا وعدك وعهدك؟؟؟

فجلس وبكى بمفرده في تلك الليلة وفي نفس المكان....

عندها لمس كتفه يد...

اعتقد أن "شهد" قد عادت رفع رأسه مسرعاً ولكن لم تكن "شهد" بل كانت فتاة أخرى...

قالت له هل أنت "حسام"؟؟؟

قال نعم، ومن أنت؟؟

قالت أنا صديقة "شهد" المقربة

قال هل أنت "هبة"؟؟

قالت نعم...

قال هل رأيت ما صنعت بي من ادعت حبي؟؟؟....

## غرباء في الليل

هل ترين وعدّها لي؟؟...

انهمرت "هبة" بالبكاء...

قال ما الذي حصل هل مسها سوء؟؟؟ كيف هي حالة والدها؟؟؟ هل هو بخير؟؟؟  
أخبريني أرجوك...

قالت نعم والدها بخير...

قال وهي؟؟؟

قالت لقد ماتت....

عندها شعر بأن الدنيا قد أغلقت وأن العالم قد أظلم...

سألها كيف حصل ذلك...

أخبرته بالقصة كاملة...

وقف وذهب إلى بيته دون أن ينطق بحرف...

استلقى على سريره وبدء بالبكاء...

## غرباء في الليل

أغرقت دموعه الوسادة...

تذكر تفاصيل الحادثة الرابعة المؤلمة له...

تذكر ما قالته "هبة" عن تفاصيل الحادثة...

حيث أخبرته قائله...

"شهد" قد توفت جراء عطل أصاب محرك طائرتها وهي في طريق عودتها إلى "أن دمشق وسقطت الطائرة وماتت "شهد"....

تكمل "هبة" قائله...

في صباح اليوم الذي قررت "شهد" العودة إلى دمشق اتصلت ب "هبة" لتخبرها بالأمر..

قالت "شهد" ل "هبة" لقد تماثل أبي للشفاء التام وهو الآن في صحة جيدة والحمد لله، وأنا قررت العودة اليوم إلى دمشق، فرحت "هبة" لسماع تلك الأخبار الجميلة فسألته وهل علم "حسام" بالأمر، قالت لقد أخبرته بآخر رسالة بيننا أن أبي قد أصبح بحالة جيدة لكنني أريد أن يكون خبر عودتي إلى دمشق مفاجئة له...

أريد أن ألقاه على الرصيف الذي أخبرتك عنه...

## غرباء في الليل

أريد أن نجتمع في المكان الذي تعاهدنا وتواعدنا فيه بألا نفترق أبداً...

عندما توفت لم أعلم ما يجب عليّ قوله تمهلت كثيراً قبل أن آتي إليك وأخبرك...

عندها نهض "حسام" من على السرير وقال سوف أكتب كلامي الأخير...

فوالله لم أعد أطيق هذه الحياة من دونك فكتب لها...

قد دخلت قلبي فأسعدته...

دخلت روحي فأحييتها...

تعاهدنا على العيش سوياً...

لم أخلف وعداً أو عهداً قطعتك لك وأنت على قيد الحياة فهل أخلفه وقد رحلت أنت وروحي...

وها أنا على فراش موتي...

أموت وحيداً...

أرجو من ربي أن ألقاك في جنة النعيم...

أن ألقاك في ملتقى لا يمكن أن نفترق بعده...

## غرباء في الليل

في ذمّة الله ما ألقى وما أجذُ      أهذه صخرة أم هذه كبدُ  
قد يقتل الحزن من أحبابه بعدوا      عنه فكيف بمن أحبابه فُقدوا

وصيتي الأخيرة...

أكتبوا على شاهدة قبري مات جراء وعداً قطعه لمن يحب....

فبئس المرء الذي يخلف وعداً قطعه

.....



يا غائبين بكي الزَّمانُ لبعْدكُمْ  
فهلُّ لنا بعدَ الغيابِ لقاءُ

اشتقنا لكم يا ليتنا لم نفترقُ  
ف البعدُ فيهِ مذلَّةٌ وشقاءُ